الفصل الرابع

رحلة ابن جبير

١

حياته وتطوافه فى البلاد

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكنانى الأندلسى . أصل أسرته من بلدة شاطبة هناك، وولد ببلنسية سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م وعنى أبوه بتربيته، فدرس العلوم الدينية واللغوية ، ولم يلبث أن تيقظت فيه مواهبه الأدبية ، فأخذ فى قرض الشعر .

ولمع اسمه ، فألحقه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن بكُتَّاب ديوانه ، وخَفَّ على نفسه، فكان يُحضره مجلس شرابه ، وكان ينقبض عن الشرب ، فألح عليه الحاكم أن يشرب معه ، وأقسم عليه ليشربنَّ سبعا ، وجاراه ، فشرب سبع كئوس . وسُرَّ الأمير ، وملأ له الكأس بالدنانير سبع مرات ، وصَبَّها فى حجره ، فأصرَّ فى نفسه أن يكفِّر عن سيئته ، وأن ينفق هذه الدنانير فى الحج إلى بيت الله . ولم يلبث أن أعلن عزمه لأبى عثمان، وأنه حلف بأيمان لا محيص له من البرّ بها ، فأعانه على ما ابتغاه .

وفَصَلَ ابن جبير من غَرْناطة فى ٨ من شوال سنة ٥٧٨هـ / ٣ من فبراير سنة ١١٨٣م، وركب البحر فى سفينة لبعض أهل جنوة قاصداً إلى الإسكندرية. ونزل بها ، وولى وجهه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر ، فعيذاب حيث اجتاز البحر إلى جُدَّة . واتجه من فوره إلى مكة، فأدى فريضة الحج،

وزار المدينة ، وظل فى هذه البلاد المقدسة نحو ستة أشهر ، ثم قصد إلى الكوفة ، فبغداد فالموصل ولم يمر مروراً عابراً بهذه البلاد ، بل كان يمكث بعض الوقت يدرس ويفحص . وانتقل إلى الشام ، وكان للصليبيين فيها مستعمرات كثيرة ، فجاس خلال ديارهم . وأخيراً ركب البحر من عكا عائداً إلى بلاده على مركب مسيحى ، وألمت المركب بصقلية ، فنزل فيها وطاف ببلادها ، ثم رحل إلى بلاده ووصل إليها فى ١٥ من المحرم سنة ٥٨١هـ/ ٢٥ من أبريل سنة ١١٨٥م .

ورحلة ابن جبير تقصّ ما شاهده فى طريقه إلى حَجّه وعودته منه، وهى مكتوبة بشكل مذكرات يومية ، فمع كل مشهد وكل بلدة التاريخُ باليوم والشهر . ويظهر أنه كتبها فى أوراق منفصلة ، ولم يجمعها بنفسه بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » ومع ذلك فإن من نشروها فى العصر الحديث من المستشرقين والعرب آثروا أن يطلقوا عليها اسم « رحلة ابن جبير » .

ورحل ابن جبير إلى المشرق بعد هذه الرحلة مرتين ، فإنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس واستيلائه عليه من أيدى الصليبيين ، فحدثته نفسه أن يزور هذه الأماكن وعَلَمُ الإسلام والعرب يرفرف عليها ، ولم يلبث أن رحل رحلته الثانية فى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وعاد إلى بلاده فى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١م . وماتت زوجه فحزن عليها حزناً شديداً ، وقد خصها بديوان من شعره ، ولم يجد عزاء عنها إلا أن يحج إلى بيت الله ، فرحل رحلته الثالثة فى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وأقام بمكة مدة ، ثم تحول عنها إلى الإسكندرية ، وأقام بها يحدّث ويؤخذ عنه إلى أن لبّى نداء ربه . ويغلب أن يكون مسجد سيدى جابر بها مسجده ، وأن يكون العامة حرفوا اسمه مع الزمن. والرحلة مكتوبة بلغة سهلة بسيطة ملائمة تماماً لموضوعها ، وطريقته فى السَّرْد

محببة إلى النفس ، وهو يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً ، وقد عنى بالحديث عن المساجد فى كل بلدة ألم بها ، وترك نفسه على سجيتها فلم يتكلف فى عبارة ولا فى فكرة ، وأدى ما داخله من عواطف وأحاسيس إزاء بعض الحوادث والمواقف أداء صادقاً صريحاً .

٢

فى الديار المصرية

يركب ابن جبير البحر بإحدى سفن جنوة وينزل فى الإسكندرية ، فيلقى موظفو الميناء السفينة بتفتيش دقيق ، ويأخذون من راكبيها بعض الضرائب ، ولا ينزلونهم منها إلا بعد تحرّ وثيق . وشكا ابن جبير من ذلك مر الشكوى ، وغاب عنه أن مصر حينئذ كانت تحارب الصليبيين وأنه كان يركب سفينة أوربية من جنوة ، هى موضع شك واتهام .

ولما استوثق الموظفون منه ومن صحبه الأندلسيين تركوهم وشأنهم ، فجاس خلال الإسكندرية وأعجب بمبانيها ومنارتها ومدارسها وما رُتّب فيها للطلبة والمدرسين من مرافق ومنافع ، وما يجرى على غُرَباء المغاربة من خُبْز يومى معلوم ، وما يسود ذلك من أمن ورفاهية فى المعيشة ، ولندعه يصف لنا ذلك بقلمه ، معدداً محاسن البلد وأخباره وآثاره ، يقول :

« أولُ ذلك حسنُ وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى إنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضاً . . . ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله عز وجلّ على يدىْ من سُخّرَ لذلك آية للمتوسّمين ، وهدايةً

للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى برّ الإسكندرية . يظهر على أزيد من سبعين ميلا ، ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضاً ، يزاحم الجو سموا وارتفاعاً ، يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذرَعْنا أحد جوانبه الأربعة ، فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً » . ويذكر أن طوله أزيد من مائة وخمسين قامة . « وأما داخله فمرأى هائل اتساعَ معارج ومداخل ، وكثرةَ مساكن ، حتى إن المتصرف فيها والوالج فى مسالكها ربما ضل ، وبالجملة لا يحصّلها القول . . . وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة المؤرخ ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف . ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه (كان حينئذ صلاح الدين الأيوبى) المدارس والمحارس (بيوت الطلاب والزهاد) الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، وإجراءً (راتباً) يقوم به فى جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصَب لهم مارستانا (مستشفى) لعلاج من مَرِض منهم ، ووكّل لهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . . . ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كل يوم بالغاً ما بلغوا ، ونصَبَ لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله ، وقد ينتهى فى اليوم إلى ألفْ خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة . . . وأما أهل بلده ففى نهايه من الترفيه واتساع الأحوال . . . ومن الغريب أيضاً فى أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم .

وهو أكثر بلاد الله مساجد . . . والمكثر ينتهى فى تقديرها إلى اثنى عشر ألف مسجد ، ومنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة هى كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع . . . وكلها بأئمة مرتّبين من قبل السلطان ، فمنهم من له خمسة دنانير مصرية فى الشهر ، ومنهم من له فوق ذلك ، ومنهم من له دونه ، وهذه منقبة من مناقب السلطان . »

ويأخذ ابن جبير طريقه إلى القاهرة ومصر (الفسطاط) فى الدلتا ، ويصف المدن المختلفة التى مرّ بها ، ثم ينزل فى الفسطاط والقاهرة ، ويذهل أمام آثارهما العجيبة ، ويتحدث عن مشهد الحسين ، ويفيض فى الحديث عن المشاهد الأخرى ، ويصف القلعة والمارستان والأهرام وأبا الهول والجيزة وجزيرة الروضة القائمة بينها وبين الفسطاط . ونكتفى هنا بما يقوله عن مشهد الحسين ثم عن المارستان ، وهو يصفهما على هذا النحو :

« أول ما نبدأ بذكره . . . المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنيان حفيل ، يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الإدراك به ، مجلّلٌ بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض ، ومنه ما هو دون ذلك . قد وضع أكثرها فى أتْوَار (آنية) فضة خالصة . ومنها مذهبة . وعلقت عليه قناديل فضة ، وحُفَّ أعلاه كله بأمثال التفافيح (الكرات) ذهباً ، فى مصنع (بناء) شبيه الروضة ، يُقَيِّد الأبصار حسناً وجمالا ، فيه من أنواع الرخام المجزّع ، الغريب الصنعة البديع الترصيع ، ما لا يتخيله المتخيلون ، ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون . والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد ، على مثالها فى التأنق والغرابة . حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة . وعلى يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها ، وهما أيضاً

على تلك الصفة بعينها . والأستارُ البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع . ومن أعجب ما شاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجرٌ موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص (البريق) يصف الأشخاص كأنه المرآة الهندية الحديثة الصَّقْل . وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسُّحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين ، ما يذيب الأكباد ، ويصدع الجماد . . . ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر السلطان (صلاح الدين) المارَستان (المستشفى) الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً ، أبرزه لهذه الفضيلة أجراً واحتساباً (طلباً للثواب من الله) . وَعيَّن قَيِّما من أهل المعرفة وضعَ لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها . ووُضعت فى مقاصير (غرف) ذلك القصر أسِرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسَى . وبين يدى ذلك القَيِّم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بُكْرة وَعشيّة . . . وبإزاء هذا الموضع مقتطعٌ للنساء المرضى ، ولهنّ أيضاً من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ، فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها . وبمصر (الفسطاط) مارستان آخر على مثل ذلك الرَّسْم بعينه . »

وهو يُكثر من مدح صلاح الدين ورعايته لشئون المصريين وما ينزل بقُطْره من المغاربة إذ يُجرى عليهم الأرزاق ويخصهم بعطفه وحدَبه ، وقد نوه باهتمامه بالمدارس وما بها من ضروب التعليم وعنايته بتحفيظ القرآن الكريم ، وأشاد بمحوه للضريبة التى كانت تؤخذ فى القاهرة من حُجَّاج المغرب ومحوها أيضاً من بلاد الحجاز بفضل ما أفاء على هذا القطر من ماله فعوضَ الحاكمين

هناك أجمل عوض بما أدّى إليهم .

ويبرح القاهرة فى شهر المحرم من سنة تسع وسبعين ميمماً وجهه نحو قوص ، ويصف كل ما بطريقه من مدن وآثار وقبور للفراعنة وغيرهم ، ويقف دائماً عند المساجد والأسواق والهياكل العتيقة وما عليها من تصاوير الفراعنة ونقوشهم ، وما يزال فى طريقه ووصفه حتى يصل إلى قوص فيقول :

« ثم كان الوصول إلى قوص يوم الخميس الرابع والعشرين لمحرّم المؤرخ ، وهو التاسع عشر من مايو ، فكان مقامنا فى النيل ثمانية عشر يوماً ، ودخلنا قوص فى التاسع عشر ، وهذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق ، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين ، وتجار أرض الحبشة ، لأنها محضر الجميع ومحطّ الرحال ومجمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم . ومنها يفوّزون (يخترقون المفازة) بصحراء عَيْذاب ، وإليها انقلابهم فى صدورهم من الحج ، وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربضٌ كبير خارج المدينة » .

ويجتاز الصحراء الشرقية من قوص إلى عيذاب على البحر الأحمر واصفاً مراحله فيها ومبيته بها ، وكثرة القوافل الواردة والصادرة من عيذاب تحمل توابل الهند وخاصة أحمال الفلفل والقرفة ، موزعاً ما يشاهده على الأيام والليالى حتى يصل إلى عيذاب ، فيقول فيها :

« هى مدينة على ساحل بحر جُدَّة (البحر الأحمر) غير مسوَّرة ، أكثر بيوتها الأخصاص (بيوت من طين) وهى من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، زائداً إلى مراكب الحجاج . . . وهى فى صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شىء إلا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كبير . . . فيجتمع لهم من ذلك مال كثير فى

حملتهم إلى جدة وردّهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة . . . وفى بحر عيذاب مغاصٌ على اللؤلؤ فى جزائر على مقربة منها . . . ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية ، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر فى الزواريق ، ويقيمون فيها الأيام ، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق . والمغاص فيها قريب القعر ليس ببعيد ، ويستخرجونه فى أصداف لها أرواح ، كأنها نوع من الحيتان ، أشبه شيء بالسلحفاة ، فإذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنها محارتا فضة ، ثم يشقون عليها ، فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف » .

٣

فى الأراضى المقدسة

ويركب البحر إلى جُدَّة ، ويشكو من سوء معاملة العرب للحجاج ومما يأخذون منهم من مكوس ، ويشيد بصلاح الدين لتعهده لأمير مكة أن يدفع له سنوياً ما يعوّضه عن مكوس الحجاج ، وكان يرسل إليه ألفى دينار وألفى أردب من القمح ، ومع ذلك لا يزال هذا الأمير ورعيته يظلمون الحجاج ويرهقونهم من أمرهم عسراً . ويتحول إلى مكة واصفاً الطريق إليها من جدة . ودخلها فى اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر ، وهو الرابع من شهر أغسطس كما يقول ، مع طلوع الصباح ، والأصوات تصك الآذان بالتلبية فى كل مكان ، والألسنة تضج بالدعاء ، وتبتهل إلى الله بالثناء . ويصف مناسك الحج وصفاً طويلا ، كما يصف المسجد الحرام وصفاً مسهباً ، ومما يقول فيه : « البيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربيع . . . وارتفاعه

فى الهواء من الصَّفْح (الجانب) الذى يقابل باب الصَّفا وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى تسع وعشرون ذراعاً ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون . . . وأول أركانه الذى فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف . . . وأول ما نلقى بعده الركن العراقى ، وهو ناظر إلى جهة الشمال ، ثم الركن الشامى ، وهو ناظر إلى جهة الغرب ، ثم الركن اليمانى ، وهو ناظر إلى جهة الجنوب ثم نعود إلى الركن الأسود ، وهو ناظر إلى جهة الشرق . وعند ذلك نُتم شوطاً واحداً . وباب البيت الكريم فى الصفح الذى بين الركن العراقى وركن الحجر الأسود . . . والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف ، وهو من فضة مذهبة ، بديع الصنعة ، رائق الصفة ، يستوقف الأبصار حسناً وخشوعاً ، للمهابة التى كساها الله بيته . . . وعضادتاه كذلك ، والعتبة العليا كذلك أيضاً ، وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز ، وسعته مقدار شبرين ، وللباب نقّارتا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب ، وهو ناظر إلى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً . . . وداخلُ البيت الكريم مفروش بالرخام المجزَّع ، وحيطانه رخام كلها مجزع . قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج (شجر) مفرطة الطول ، بين كل عمود وعمود أربع خُطًا ، وهى على طول البيت متوسطة فيه . . . ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلىّ بالفضة المذهبة المستحسنة ، يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها ، وهى تحفّ بالجوانب الأربعة ، وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى . وسقف البيت مجللٌ بكساء من الحرير الملون . وظاهر الكعبة كلها من الجوانب الأربعة مكسوٌّ بستور الحرير الأخضر ، وسدّاها قطن ، وفى أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب : (إن أول بيت وُضع للناس للذى ببَكَّة) الآية ، واسم الإمام الناصر لدين الله (الخليفة العباسى). وسعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها . قد شُكِّل فى هذه الستور من الصنعة الغريبة التى تبصرها

أشكالُ محاريب رائقة ورسوم مقروءة . . . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون ستراً . . . وله خمسة مضاوئ (مناور) وعليها زجاج عراق بديع النقش أحدها فى وسط السقف ، ومع كل ركن مضوأ . . . وبين الأعمدة أكواس من الفضة ، عددها ثلاث عشرة ، وإحداها من ذهب . وأول ما يلقى الداخل من الباب عن يساره الركن الذى خارجه الحجر الأسود ، وفيه صندوقان فيهما مصاحف ، وقد علاهما فى الركن بوّيبان (مصغّر بابين) من فضة ، كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن ، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة . . . وفى الركن العراقى باب يسمى باب الرحمة ، يُصْعد منه إلى سطح البيت المكرم، وقد قام له قَبْو ، فهو متصل بأعلى سطح البيت، داخله الأدراج ، وفى أوله البيت المحتوى على المقام الكريم ، . . . هو مقام إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه ، وهو حجر مغشى بالفضة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقدار شبرين ، وأعلاه أوسع من أسفله . . . وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة . . . وداخل الحجر (ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جهة الشمال) بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة ، وهو مفروش بالرخام المجزّع المقطع فى دَوْر الكف إلى دور الدينار ، إلى ما فوق ذلك ، ثم أُلصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة ، غريب الإتقان رائق الترصيع والتجزيع ، رائع التركيب والرصف ، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها ما يقيّد بصره حسناً ، فكأنه يجيله فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان ، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسىّ ، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة . وبإزائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر ، أحدثَ الصانع فيها من التوريق الرقيق والتشجير ما لا يحدثه صَنعُ اليدين فى الكاغد (الورق)

قطعاً بالجلمين (المقص) فمرآهما عجيب . . . وقبة بئر زمزم تقابل الركن ، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض ، وتنور البئر المباركة فى وسطها ، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرعناه ، وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر . . . والحجر الأسود المبارك ملصق فى الركن الناظر إلى جهة المشرق . . . وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعُقَد ، وفيه أربع قطع ملصقة . . . والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات على ثلاث سوارٍ من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد ، ذَرْعها فى الطول أربعمائة ذراع وفى العرض ثلاثمائة ذراع . . . وعدد سواريه الرخامية التى عددتها بنفسى أربعمائة وإحدى وسبعون سارية . . . والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم . »

ويستمر ابن جبير فى وصف المسجد ، ويعرض علينا وصفاً دقيقاً للكعبة وكسوتها ولكل ما بداخل المسجد من أجزاء ، ويطيل فى وصف فتحه للناس والرسوم المتخذة لذلك ، كما يطيل فى وصف المنبر وهيئة خطيبه وما يقول فى خطبة الجمعة من أدعية ، ولا يكاد يترك شيئاً فى المسجد ولا فى ظاهره وسطحه إلا ويصفه وصفاً دقيقاً ثم يصف مكة وآثارها وجبالها ومشاهدها وأبوابها ومطاعمها وحماماتها واحتفال الناس فيها بليلة نصف شعبان وبرمضان ويوم العيد ، ويفيض فى وصف مناسك الحج ومشاعره وصْفَ المشاهد اليقظ الذى لا تفوته صغيره ولا كبيرة ، وهو يقسم ذلك على الأيام والساعات ، إذ يكتب دائماً ما يكتب فى صورة يوميات . وما يزال بمكة حتى اليوم العشرين من ذى الحجة ، فيعزم على زيارة المدينة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصل إليها فى اليوم الثالث من المحرم ، ويستهل حديثه عنها بوصفه لمسجد الرسول ، ومما قال فيه :

« المسجد المبارك مستطيل ، وتحفّه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ،

ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى ، والجهة القبلية منه لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق ، والجهة الجوفية لها أيضاً خمسة بلاطات على الصفة المذكورة ، والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات ، والجهة الغربية لها أربعة بلاطات . والروضة المقدسة (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) مع آخر الجهة القبلية مما يلي الشرق . . . وشكلها شكل عجيب ، لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله . . . وجميع سعة الروضة المكرمة من جميع جهاتها مئتا شبر واثنان وسبعون شبراً ، وهي مؤزرة بالرخام البديع النحت ، الرائع النعت ، وينتهي الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيراً ، وعليه من الجدار المكرّم ثلث آخر قد علاه تضميخ المسك والطيب . . . والذي يعلوه من الجدار شبابيك عود، متصلة بالسمْك الأعلى ، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسمْك المسجد . وإلى حَيِّز إزار الرخام تنتهي الأستار ، وهي لازوردية اللون . . . وفي الصفحة القبلية أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسمارُ فضة ، هو أمام الوجه الكريم ، فيقف الناس أمامه للسلام ، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ورأس عمر الفاروق مما يلي كتفي أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم ، فيسلم ، ثم ينصرف يميناً إلى وجه أبي بكر ، ثم إلى وجه عمر . وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة ، وفيها اثنان من ذهب . وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو مرخّم كله وارتفاعه نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجه ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مقفل ، يفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف ، والمنبر مغشّى بعود الآبنوس ، ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر ، قد طُبق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به ، يصونه من القعود عليه ،

فيُدخل الناس أيديهم إليه ويتمسحون به تبركاً بلمس ذلك المقعد الكريم . . . وطول المسجد الكريم مئة خطوة وست وتسعون ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعدد سواريه مئتان وتسعون . . . والبلاط المتصل بالقبلة تحف به مقصورة تكتنفه طولا من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها . وبينها وبين الروضة الكبيرة والقبر المقدس محمل كبير مدهون ، عليه مصحف كبير فى غشاء ، مقفل عليه ، هو أحد المصاحف الأربعة التى وجّه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد . وبإزاء المقصورة إلى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك . . . ويليها فى البلاط الثانى لجهة الشرق أيضاً دفة مطبقة على وجه الأرض مقفلة ، هى على سرداب يُهْبَطُ إليه على أدراج تحت الأرض ، يفضى إلى خارج المسجد ، إلى دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو كان طريق عائشة إليها . وبإزائها دار عمر بن الخطاب ودار ابنه عبد الله رضى الله عنهما . . . وأمام الروضة المقدسة صندوق كبير هو للشمع والأتوار التى توقد أمام الروضة كل ليلة . وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود ، هو موضع مبيت بعض السَّدَنة الحارسين للمسجد المبارك . والمؤذن الراتب فى المسجد أحد أولاد بلال رضى الله عنه . وفى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدَثة جديدة ، تعرف بقبة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك وما يحتاج إليه فيه . . . ونصف جدار القبلة الأسفل رخام . . . مختلف الصنعة واللون ، مجزَّع أبدع تجزيع ، والنصف الأعلى من الجدار مزين كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، قد أنتج الصناع فيه نتائج من الصنعة غريبة . تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات ، مائلة الأغصان بثمرها ، والمسجد كله على تلك الصفة ، لكن الصنعة فى جدار القبلة أحفل . . . وللمسجد المبارك تسعة عشر باباً ، لم يبق منها مفتوحاً سوى أربعة فى الغرب ، منها اثنان يعرف واحد بباب الرحمة والثانى بباب الحشية ،

وفى الشرق اثنان ، يعرف واحد بباب جبريل عليه السلام والثانى بباب الرجاء . ويقابل باب جبريل دار عثمان رضى الله عنه . . . وأمام الروضة المكرمة شباك حديد مفتوح إليها ، تتنسم منه روحاً وريحاناً . . . »

ويصف لنا ابن جبير مشاهد المدينة ، كما يصف مجلس وعظ بالمسجد النبوى ، وسرعان ما يترك يثرب فى اليوم الثامن من شهر المحرم ميمماً شطر العراق .

٤

فى العراق والشام

ويرسم لنا ابن جبير الطريق إلى الكوفة بمنازله ومناهله رسماً بارعاً ، ثم يأخذ فى رسم المدن العراقية بادئاً بالكوفة وما يزال فى رسومه وحديثه عن البلاد التى يهبط بها حتى يصل إلى بغداد فى الثالث من صفر سنة ثمانين . وأفرد لهذه المدينة فصلا طويلا ، ومما جاء فيه :

« هذه المدينةالعتيقة ، وإن لم تزل حضْرَة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها ، وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب إليها ، كالطلل الدارس ، والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز (المتعجل) العقلة (الوقوف) والنظر ، إلا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لَبَّتَيْنِ » .

وتحامل على أهل بغداد تحاملا شديداً فقال فيهم : « لا تكاد تلقى منهم إلا من

يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء . قد تصور كل منهم فى معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيط مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم . . . يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً ، وما منهم من يحسن لله فرضاً ، فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه ... والغريب فيهم معدوم الإرفاق ، متضاعف الإنفاق ، لا يجد من أهلها من يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق . »

وهذا عنف فى الذم ، وهو ذم يعود — فى أغلب الظن — إلى أسباب شخصية ، وينبغى للمؤرخ أن يتخلى عن هواه حين يحكم على قوم من الأقوام . ولم نورد كلام ابن جبير على وجهه ، ففى هذا ما يغنى عن جميعه ، ومع ذلك فهو يستثنى بعد كل هذا الذم واللوم ، فيقول :

« أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين ووعاظهم المذكرين ، لا جرم أن لهم فى طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة على الإنذار المخوف والتحذير ، مقامات (مجالس) تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحبط كثيراً من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة (النكبة) الصماء أن تحل بديارهم ، لكنهم معهم يضربون فى حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد » .

ويصف مجالس مختلفة لعالم كبير من علماء بغداد هو رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية ، ويقول فى مجلس من مجالسه :

« كان مجلسه مجلس علم ووعظ ، وقوراً هيناً ليناً ، ظهرت فيه البركة

والسكينة ، ولم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفس المستكينة ، ولا سيما آخر مجلسه فإنه سرت حُميّا وعظه إلى النفوس حتى أطارتها خشوعاً ، وفجرتها دموعاً ، وبادر التائبون إليه سقوطاً على يده ووقوعاً ، فكم ناصية جزّ ، وكم مفصل من مفاصل التائبين طبّق بالموعظة وحزّ . وبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترْحَمُ العصاة ، وتتغمد الجناة ، وتستدام العصمة والنجاة . »

واستمعَ أيضاً إلى ابن الجوزى إمام عصره فى الحديث والوعظ ، وراعه بيانه وما يلقى فى الأسماع من درر لفظه الآخذة بمجامع القلوب ، وفى وصف خطبة له يقول :

«أتى فيها برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النّشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابةً وندامة ، ويذكّرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة . »

ويقول إن مجلس ابن الجوزى كان يبتدئ بقراءة القرآن ، وكان ينشد فيه الأشعار التى تشعل القلوب وجداً ، والانفعال قد أثر فيه ، ويكاد يمنع خروج الكلام من فيه . ويعود بنا إلى وصف بغداد ومبانيها ومحالّها وأسواقها ، ثم يغادرها إلى الموصل فى الخامس عشر من صفر ، ويصف لنا بلدان الموصل بلدة بلدة ، ثم يتحول إلى الشام وينزل حَلَب ، وقد أعجب بمبانيها وحصونها ، ومن قوله فيها :

« بلدة قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمان يطير . . . لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزهت حصانةً أن ترام أو تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة

الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء . . . ومن كمال خلالها المشترطة فى حصانة القلاع أن الماء بها نابع ، وقد صُنع عليه جبّان ، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر ، والطعام يصير فيها الدهرُ كله ، وليس فى شروط الحصانة أهم ولا آكدُ من هاتين الخلتين . ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان . . . ويعترض دونهما خندق . . . وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة ، فيها العلالىّ (الغرف العليا) المنيفة ، والقِصاب (الدور) المشرفة . . . وأما البلد فوضعه ضخم جدا حفيل التركيب بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة . تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى ، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية . وكلها مسقف بالخشب ، وسكانها فى ظلال وارفة ، وكل سوق منها تقيِّد الأبصار حسناً ، وتستوقف المستوفز تعجباً . وأما قَيْسَا ريتها فحديقة بستان نظافةً وجمالا ، مطيفة بالجامع المكرّم . . . وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجلها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتّح كله أبواباً مغربة الحسن إلى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين باباً ، فيستوقف الأبصار حسن منظرها ، وفى صحنه بئران معينان . . . ويتصل به من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى . . . ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلىّ مفتح كله بيوتاً وغرفاً . . . وقد امتد بطول الجدار عريش كرْم مثمر عنباً . . . وللبلدة سوى هذه المدارس نحو أربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان . »

ويترك حلب إلى حماة وحمص ، ويصل إلى دمشق فى يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول ويستهل حديثه عنها بهذا المديح الرائع :

« جنةُ المشرق ، ومطلع حسنه الموفّق المشرق ، وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقرأناها ، وعروس المدن التى اجتلیناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ،

وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت فى منصّتها أجل تزيين . . . ظلٌّ ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مذانبه انسيابَ الأراقم (الحيات) بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صَقيل ، وتناديهم : هلموا إلى معرّس للحسن ومَقيل ، وقد سئمت أرضها كثْرة الماء ، حتى اشتاقت إلى الظماء ، فتكادتناديك بها الصم الصّلاب : اركض برجلك ، هذا مُغْتَسَل بارد وشراب . قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهَر ، وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قَيْد النظر ، ولله صدقُ القائلين عنها : إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسامتها (تقابلها) وتحاذيها » .

و يأخذ فى وصف جامعها العجيب ، ويتحدث عن أبوابه وحيطانه وما عليها من نقوش وتصاوير ، كما يتحدث عن مقاصيره وعمده وقبابه ومحاريبه وشمسياته وما به من بديع البناء وغرائب الحلى . ثم يتحدث عن مشاهد دمشق وأبوابها وأسواقها ومدارسها ومارستانها مشيداً بكل ذلك كما يشيد بما فيها من رُبُطٍ وخوانق للمتصوفة ، وفى هذه الخوانق يقول :

« هى قصور مزخرفة يطّرد فى جميعها الماء على أحسن منظر يُبْصَرُ ، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤنَ الدنيا وفضولها ، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكر فى أسباب المعايش ، وأسكنهم فى قصور تذكّرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيمُ الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسُنّة فى المعاشرة عجيبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع (أناشيد المتصوفة فى الحب الإلهى) المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات المنفعلُ المتأثر

رقة وتشوقاً . . . ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب (طلب العلم) فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً ، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم . »

وفى هذا الوقت الذى زار فيه دمشق كانت الحرب قائمة على قدم وساق بين صلاح الدين والصليبيين ، ولاحظ ابن جبير أن تجار الطرفين يغدون ويروحون فى الدارين : دار الإسلام ودار الصليبيين بدون أى صعوبة تقوم فى سبيلهم ، يقول :

« ومن أعجب ما يحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان وتقع المصافّ (الحرب) بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . . . واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكّة كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يُعْتَرض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سِلَعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس فى عافية » .

وأشاد هنا بأعمال صلاح الدين وآثاره فى الشام وانتصاراته على الصليبيين ، وندخل معه فى شهر جمادى الآخرة وقد عزم على السفر إلى عكاء ليلتمس ركوب البحر مع تجار النصارى فى مراكبهم المعدة لسفر الخريف ، ويصل إليها فى اليوم العاشر من الشهر المذكور ، ومن حديثه عنها :

« هى قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحطّ الجوارى (السفن) المنشآت فى البحر كالأعلام ، مرْفأ كل سفينة ، والمشبهة فى عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سِككها وشوارعها تغصّ بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الأقدام . . . انتزعها

الإفرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة ، فبكى لها الإسلام ملء جفونه ، وكانت إحدى شجونه » .

وسمع بمركب تقوم من الإسكندرونة ، فذهب إليها مارا « بصور »، وفيها رأى عُرْساً لبعض الصليبيين ، فوصفه فى دقة على هذا النحو :

« ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدَّث بها زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند ميناها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوى أرحامها ، وهى فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، قد حفتْ بشبكة ذهب منسوجة وعلى لَبَّتها (أعلى صدرها) مثل ذلك منتظم ، وهى رافلة فى حُليها وحُللها ، تمشى فتراً فى فتر ، مَشْيَ الحمامة أو سيرَ الغمامة ، وأمامها جِلّة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية ، تسحبُ أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس ، ويَرْفُلْنَ فى أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد غدوا فى طريقهم سماطين ، يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بَعْلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة » .

ولا يُهَيِّأ لابن جبير السفر من صور ولا من الإسكندرونة ، فيعود إلى عكة ، ويجد سفينة مبحرة إلى مسّينة إحدى ثغور جزيرة صقلية ، فيبحر فيها عائداً إلى بلاده .

٥

العودة إلى الوطن

ويركب البحر فى الثامن من رجب سنة ٥٨٠هـ، ويأخذ فى وصف البحر ورياحه وعواصفه . وما زالوا فيه حتى أهلّ عليهم شعبان ، وتملكه اليأس أن يرجع إلى دياره ، ولم يلبث أن لمع له بريق الأمل حين مرت السفينة بجزيرة كريت (إقريطش) فاستشعر الأنس وغلب رجاؤه اليأس ، ثم عاوده الخوف حين هبت على المركب بعض العواصف ، وهو فى كل ذلك يبدع فى الوصف والتصوير على نحو ما نرى فى هذه القطعة :

« وفى النصف من ليلة الأحد الحادي عشر من شعبان انقلبت الريح غربية ، وجاءت عاصفة ، وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه ، وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عِظَمه ، تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علوًّا . . . ولما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غماغمه ، واستشرى عصف الريح ، فحُطّت الشُّرُع ، واقتصر على الدّلالين الصغار دون أنصاف الصوارى . ووقع اليأس من الدنيا ، وودّعنا الحياة بسلام ، وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا أننا قد أُحيط بنا ، فيا لها ليلةً يشيب لها سودُ الذوائب ، مذكورة فى ليالى الشوائب ، مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب . ونحن منها فى مثل ليل صول (ليلة ذكرها شاعر قديم) طولا ، فأصبحنا ولم نكد . وكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا ، وكنا قد خلفناه عن يميننا ، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ،

ونحن نظن أنا قد جزْناه وسُقِط في أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود الميمون . . . واستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غُصَص هذا الكدر ، وقلنا :

سيكون الذى قُضِي سَخِطَ العبدُ أو رَضِي

. . . والحذرَ الحذر ، من ركوب مثل هذا الخطر ، وإن كان المحذور ، لا يغنى عن المقدور شيئاً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

وأخيراً وصلت السفينة إلى مَسّينة بصقلية ، فى اليوم الثالث من رمضان ، بعد مكابدات ومشقات . وعجب ابن جبير من سلامته ، وحمد الله على ما مَنّ به ، من لطيف صنعه . ثم أخذ فى وصف هذه المدينة ، فقال إنها :

« مقصد جوارى (سفن) البحر من جميع الأقطار ، كثيرة الإرفاق برخاء الأسعار . . . تَغَصّ بقاطنيها ، وتكاد تضيق ذَرْعا بساكنيها ، مملوءة نَتْناً ورِجْساً ، موحشة لا توجد للغريب أنسا ، أسواقها نافقة حفيلة ، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة ، لا تزال بها ليلك ونهارك فى أمان ، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان ، مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخناديقها ، والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجنوبية منها . ومرْساها أعجب مراسى البلاد البحرية ، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه ، وتُنْصَبُ منها إلى البرّ خشبةٌ يتصرّف عليها ، فالحمّال يصعد بحمله إليها . ولا يحتاج لزواريق فى وَسْقها ولا فى تفريغها ، إلا ما كان مرسياً على البعد منها يسيراً ؛ فتراها مصطفّة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها وإصطبلاتها ، وذلك لإفراط عمق البحر فيها » .

وأخذ يتحدث عن صقلية ، ومعروف أن المسلمين فتحوها منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الملادى) وظلوا فيها إلى أن فتحها النورمان سنة ١٠٩١ للميلاد وكان ملوكهم الأول يعاملون المسلمين معاملة حسنة ، وتقدم أن الإدريسى ألف كتابه « نزهة المشتاق » لملكهم روجَر الثانى واستعان هو وابنه غليوم فى القرن

الثانى عشر الميلادى بالعرب فى الزراعة والتجارة والملاحة ، وفسحا لهم فى الحياة ، وتركا لهم حريتهم الدينية . واليوم يزور ابن جبير الجزيرة فى عهد غليوم سنة ١١٨٤ للميلاد ، ويشهد رفقه بالمسلمين . ويشيد به وبسياسته ، وينوه باستخدامه العرب فى الوظائف والمهن المختلفة ، ومن قوله فيه :

« هو كثير الثقة بالمسلمين . وساكن إليهم فى أحواله والمهمّ من أشغاله ، حتى إن الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين . . . ومن عجيب شأنه المتحدَّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته — على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به — الحمد لله حق حمده ، وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكراً لأنعمه . وأما جواريه وحظاياه فى قصره فمسلمات كلهن . ومن أعجب ما حدثنا به خديمه ، وهو يحيى بن فتيان الطراز : أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره ، فتعود مسلمة ، تُعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، وهن على تكتّم فى ذلك كله ، ولهن فى فعل الخير أمور عجيبة . . . وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجّراً ، ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً . . . ولهم فى فعل الجميل أخبار مأثورة ، وفى افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة ، وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم . ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم ، فيحين وقت الصلاة ، فيخرجون أفراداً من مجلسه ، فيقضون صلاتهم » .

ويتنقل بنا ابن جبير فى الجزيرة بعينه الراصدة يحكى الآثار وأحوال المسلمين والمسيحيين ، متحدثاً عن الخصب المبثوث فى ربوعها وما تحظى به من موارد غنية ، ونصل معه إلى حاضرتها «بالرم» ويصفها وسكانها على هذه الشاكلة :

« هى بهذه الجزيرة أمّ الحضارة ، والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة ، فما شئت بها من جمال منظر ومخبر ، ومرتاد عيش يانع أخضر ، عتيقة أنيقة ،

مشرقة مونقة، تتطلع بمرأى فتّان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان ، فسيحة السكك والشوارع ، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشأن . قُرْطُبِيّة البنيان . ومبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذّان ، يشفها نهر معين ، ويطرد فى جنباتها أربع عيون . قد زُخْرِفت فيها لملكها دنياه . فاتخذها حضرة ملكه الإفرنجى أباده الله . تنتظم بلبّتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب ، ويُتقلّب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب . فكم له فيها — لاعمرت به — من مقاصير ومصانع . ومناظر ومطالع . وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها . ورُفّه بالإقطاعيات الواسعة رُهْبانها ... وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان . يعمرون أكثر مساجدهم . ويقيمون الصلاة بأذان مسموع . ولهم أرباض (أحياء) قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى . والأسواق معمورة بهم . وهم التجار فيها . ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم . ويصلّون الأعياد بخطبة . دعاؤهم فيها للخليفة العباسى ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم . وجامع يجتمعون للصلاة فيه ، ويحتفلون فى وقيده (إنارته) فى هذا الشهر المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار . ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم . . . وزىّ النصرانيات فى هذه المدينة زىّ نساء المسلمات ، فصيحات الألسن ، ملتحفات . مُنْتَقِبات يلبسن ثياب الحرير المذهب ، ويلتحفن اللحف الرائقة ، وينتقبن بالنقب الملونة . وينتعلن الأخفاف المذهبة ، . . . يبرزن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر » .

وكل هذه ملاحظات دقيقة . ولاحظ قبلا أن غليوم يتخذ بيت حريم على طريقة ملوك المسلمين ، وهو الآن يلاحظ أن نساءهم يتخذن زى المسلمات ، ويتحجّبن مثلهن . ويتعطّرن ويتخضبن ويتزين على طريقتهن

كما يلاحظ أن التجارة فى « بالرم» كانت لا تزال بأيدى المسلمين . وقد شكا من أنهم يضطهدون أحياناً وأن كثيراً منهم كان يكتم إسلامه ، وأن بعضاً تنصَّروا . وقد أخذت تدل الدلائل كما لاحظ الرحالة الأندلسى على أن راية الإسلام لابد أن تنكَّس هناك وأن يصبح ماله من مساجد ومعالم أثراً بعد عين ، وكأنما كان سقوط صقلية فى أيدى النورمان مقدمة لما أصاب العرب فى الأندلس ، فقد خرجوا منها بعد سقوطها بأربعة قرون ، مخلفين وراءهم تاريخاً حافلا بأمجاد حضارية باهرة .

وأبْحر ابن جبير من صقلية فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، وعاودته عواصف البحر ورياحه الهوجاء . وبعد تعب مضْن وصل إلى قرطاجنة على الشاطىء الأندلسى فى الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م وتابع السير إلى غرناطة ، وانتهى إليها فى الثانى والعشرين من هذا الشهر . فكانت مدة رحلته سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً . وعاوده الحنين إلى الشرق . فرحل إليه رحلتين ، وتوفى بثانيتهما فى الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وكان قد اعتزم أن يمضى فيها بقية حياته .